التفسير البنائي لسورة العاديات في القرآن الكريم

الأستاذ المساعد الدكتور
عمار عبد الأمير السلامي
الجامعة الإسلامية ـ النجف الأشرف
ammaralsalami74@gmail.com

The Holy Qur'an's productive interpretation of Surat Al-Adiyat

Assistant Professor Dr.
Ammar Abdul-Ameer Al- Salam
The Islamic University - Najaf - Iraq

الملخص:-

اعتمد المفسرون في تفسيرهم للقرآن الكريم على عدة مناهج، منها المنهج الروائي والمنهج الفلسفي والمنهج العلمي والمنهج البلاغي الأدبي والمنهج البنائي والمنهج الموضوعي وغيرها.

إذ يختلف مفسر عن آخر في اعتماد أي منهج يختاره في التفسير، وربما اعتمد بعضهم على عدد من المناهج وذلك حسب سعة اطلاعه وتنوع ثقافته.

وفي العصر الحديث ظهر المنهج البنائي وهو الذي يعتمد على دراسة السورة وعمارتها كياناً كاملاً قائماً بنفسه ترتبط اجزاؤه بعضها ببعض عن طريق أواصر وعلاقات مختارة تعطي لذلك البناء موضوعاً عاماً شاملاً تُحقق من خلاله السورة الوظيفية التي وردت من اجلها في القرآن الكريم.

وهذا المنهج يختلف عن كثير من المناهج القديمة، تلك التي كانت تعتمد على تفسير الالفاظ أو الغريب أو الآيات منفصلة الواحدة عن الأخرى وبشكل انفرادي إلاّ تلك الاشارات المتفرقة من هنا وهناك عند بعض المفسرين الذين أشاروا إلى التناسب بين الآيات وبعض السور.

وفي هذا البحث حاولنا تطبيق هذا المنهج على سورة العاديات ووقفنا على آراء مختارة لبعض المفسرين في تفسيرها، فوجدنا أننا عندما ننطلق من كون السورة كياناً واحداً وبناءً مستقلاً مترابط الأجزاء يتكون من مقدمة ووسط وأجزاء ومحور وخاتمة طبعت جميعاً بترتيب مقصود تؤدي جميعاً إلى تكوين فكرة معينة وموضوعاً مختاراً تدور حوله السورة، يقصدها الباري عزّ وجل للتأثير على المتلقي لينفعل بهما كلما تعددت القراءة فيتأثر رغبة ورهبة وإيماناً وتعلقاً بكتاب الله المجيد سفر الصلاح والنجاح في هذه الحياة الدنيا.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، المفسرون، سورة العاديات، التفسير البنائي، المنهج الموضوعي.

Abstract :-

The explicators used a variety of methods to interpret the Noble Qur'an, including the narrative approach, the philosophical approach, the scientific approach, the scientific method, the literary rhetorical method, the constructivist method, the objective method, and others.

According to the depth of his knowledge and the variety of his culture, some interpreters may have depended on the fact that the approach they use for interpretation vary from one interpreter to the next.

With the help of certain relationships and general themes, we provide this structure the functionality for which the Holy Qur'an specifically described it.

With the exception of those sporadic references from here and there, according to some commentators, who made reference to the proportionality between the verses and some of the surahs, this approach differs from many of the older approaches, which were based on the interpretation of words or strange or separate verses from one another and in isolation.

When we proceed from the fact that the Surah is a single entity and an independent structure with interconnected parts consisting of an introduction, middle, parts, axis, and conclusion, we find that they are all printed in an intended order that all lead to the formation of an intended idea and a subject. In our research, we tried to apply this approach to Surat Al-Adiyat. We came across selected opinions of some commentators in its interpretation.

The surah was specifically chosen to center on him in order for Almighty Allah to use them to move the recipient each time it is recited, causing them to feel desire, terror, faith, and devotion to the Glorious Book of Allah, the book of righteousness and success in this life.

Keywords: The Holy Quran, Commentators, Surah Al-Adiyat, constructivist interpretation, Objective method.

المقدمـــة:ـ

يعد المنهج البنائي في تفسير القرآن الكريم من المناهج الحديثة في التفسير، وهو الذي يعنى بدراسة النص القرآني من خلال (السورة) بوصفها وحدة لغوية لها بناؤها الخاص المتمثل في نص تترابط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع بعض الآخر(١).

فالسورة القرآنية تتركب من أجزاء تشترك معاً من أجل فكرة معينة تدور حولها السورة بأكملها، فهي اشبه بالبناء الكامل المتكون من مجموعة من الأجزاء والعناصر التي ترتبط مع بعضها بأواصر فنية وموضوعية لتكوين هيكل كامل يحقق وظيفة معينة بني من اجلها وتشترك جميع الأجزاء في تحقيقها.

وهذه العلاقات والأواصر مبنية على أساس من كون الآيات المباركة مرتبة ترتيباً توقيفياً داخل السورة، وهذا ما ذهب إليه إجماع العلماء، فقد كان رسول الله ﷺ يُعَلِّم أصحابه ما نزل من القرآن، ويأمرهم بوضع هذه الآية في مكانها المحدد داخل السورة المعينة بتوقيف من جبريل عن الله جلّ جلاله(٢).

وقد وضع أصحاب المنهج البنائي في تفسير القرآن الكريم أسساً معينة وخطوطاً متنوعة لبناء السورة القرآنية، منها ما يتعلق بطبيعة العلاقات التي تربط الآيات والاجزاء مع بعضها، ومنها ما يتصل بخطوط العمارة طولياً وافقياً وتوازياً لتكوين هيكل السورة وبنائها. ومنها كذلك ما يتصل بالعناصر والأدوات الثانوية التي يوظفها النص لإنارة هدفه كالعناصر القصصية والصورية والايقاعية ونحوها(٣).

والمنهج البنائي ليس جديداً كلياً، فقد أشار إلى أسسه القدماء في كتبهم ولاسيما عندما تناولوا الروابط بين أجزاء الكلام في القرآن الكريم فقد ذكر الزركشي في (البرهان) ما يجعل أجزاء الكلام آخذاً باعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حالة من البناء المحكم المتلائم الأجزاء(٤).

وفي العصر الحديث كانت إشارات هذا الاتجاه عند الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم ممن اتبعوا المنهج الأدبي الحديث في تفسيرهم للقرآن الكريم وأشاروا إلى الوحدة الموضوعية والعلاقات العضوية التي تربط النصوص بعضها ببعض(٥).

إلاّ أن هذا المنهج اشتهر على يد الدكتور محمود البستاني الذي ألف تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم أسماه (التفسير البنائي للقرآن الكريم) تناول فيه تفسير جميع سور القرآن الكريم وفق منهج يتناول السورة القرآنية بوصفها بناءً متكاملاً له عمارته الخاصة وأجزائه المختارة، المرتبطة مع بعضها بأواصر خاصة تُكَوِّن مع بعضها هيكلاً فنياً يتناول موضوعاً مقصوداً وظفت السورة من أجله.

وفي هذا البحث سنتناول التركيب البنائي لسورة العاديات في القرآن الكريم، ونقف عند أبرز آراء المفسرين حوله، محاولين مناقشة تلك الآراء بالتحليل والترجيح والمقارنة، معتمدين على الأسس المعتمدة في المنهج البنائي في التفسير سواء أكانت تتناول تحديد الأجزاء التي تتركب منها السورة أو تتناول العلاقات والأواصر الرابطة بين تلك الأجزاء والآيات والتي تشترك جميعاً في توضيح بناء السورة والموضوع الذي سيقت من أجله.

بحث الموضوع:

تتكون سورة العاديات من (١١) آية مباركة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء أو موضوعات رئيسة تناولتها السورة المباركة، قال تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء الأول

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً(١)﴾

﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً(٢)﴾

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً(٣)﴾

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً(٤)﴾

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً(٥)﴾

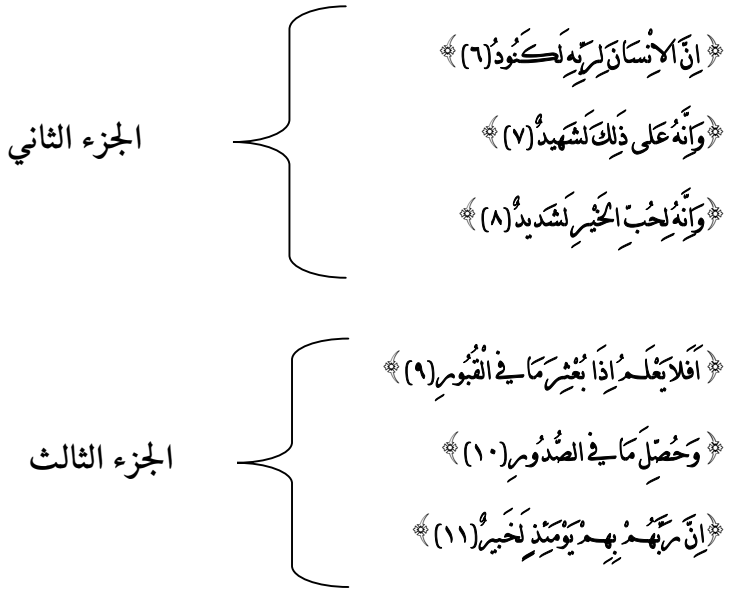

صدق الله العلي العظيم

فقد ذهب البستاني في (التفسير البنائي للقرآن الكريم) إلى أن هذه السورة تتضمن (قَسَماً)، وإشارة الى سلوك إنساني سلبي، وتلويحاً باليوم الآخر[٦]، فأما القَسَم (وهو الجزء الأول من السورة) فيتعلق بالخيل في ساحة المعركة أو الإبل في مناسك الحج، وأما الجزء الثاني فيتضمن لفت نظر المتلقي الى نمط خاص من السلوك السلبي المتمثل في كون الإنسان كافراً بانعم الله تعالى أو كونه قليل الخير أو كونه أنانياً بخيلاً.....الخ.

وأما الجزء الثالث فيتناول الإشارة الى الجزاء الذي سيلحق الجاحدين ومحبي المال في اليوم الآخر، وهذه هي الأجزاء الثلاثة التي يتكون منها النص[٧].

وأما البناء الفني وصلة الأجزاء بعضها ببعض، وما تنطوي عليه من المحاور الفكرية. فقد ذكر أن مفردات السلوك المتمثلة بـ (الكفران بالنعم) و (حب المال) هما سمتان مرتبطتان – من الزاوية النفسية ببعض، الأمر الذي جعلهما النص (محوراً فكرياً) يستهدف لفت النظر إليهما، ومن ثم تعديل السلوك البشري حيالهما، والدليل على جعلهما هدفاً فكرياً رئيساً هو: التمهيد لهما بالقسم، والتعقيب عليهما بالختام الذي يمثل الجزاء الأخروي

الذي سيلحق الجاحدين ومحبي المال[٨].

أي ان في السورة محوراً رئيساً تمثل بالمحور الفكري الذي يتضمنه المقطع الثاني الذي يحتل وسط السورة. فضلاً عن محاور فكرية أخرى جاءت عناصر ثانوية، وهي المتمثلة بالنصر العسكري أو الحج بالنسبة للمقدمة، والجزاء الأخروي بالنسبة للخاتمة.

وبهذا تكتمل عناصر البناء للنص وتتضح طبيعة العمارة الفنية التي قامت عليها السورة عنده. تلك التي تتكون من بداية ووسط وختام. حيث مهدت البداية - وهي القسم - للوسط (الكفران بالنعم، وحب المال)، ومن ثم رتبت النهاية أثراً على الوسط وهو الجزاء الذي سيلحق الجاحدين ومحبي المال. وبهذا المنحى السببي والعضوي يحكم النص عمارته الفنية. لهذه السورة عند البستاني[٩].

وعند التدقيق فيما ذكره البستاني من علاقات وأواصر فنية تربط عناصر هذه السورة المباركة، نجد أنه لم يذكر من العلاقات التي تربط الآيات المباركة داخل الأجزاء والمقاطع غير تلك الإشارة الى العلاقة والارتباط من الزاوية النفسية بين (الكفران بالنعم) و (حب المال) ذلك بأن الجاحد لنعم الله تعالى يحوم على ذاته ويراها هي المحققة لإشباعه، وأما حب المال فهو التعبير الصارخ عن الذات والحومان حولها[١٠]، من غير إشارة الى العلاقات بين الآيات المباركة التي يتكون منها الجزء الأول للنص المتمثل بالقسم، وهي آيات تتضمن مضامين وصوراً ارتبطت بعضها مع بعضها بوساطة حرف العطف (الفاء) بما له من دلالة العطف والترتيب والتعاقب، وهكذا الأمر بالنسبة الى الآيات التي يتكون منها الجزء الثالث من السورة، وهي المتمثلة بالخاتمة حسب ما اطلق عليه، فإننا نجد أنه يتكون من ثلاث آيات مرتبة ترتيباً خاصاً ومقصوداً، فضلاً عن العلاقات والروابط التي تربط الأجزاء والمقاطع التي يتكون منها النص، فنجد البستاني قد أشار الى العلاقة التي تربط بين المقطع الثاني والثالث، عادّاً ارتباطهما جاء لأن النهاية رتبت أثراً على الوسط، وهو الجزاء الذي سيلحق الجاحدين ومحبي المال، وهو منحى سببي وعضوي يربط المقطعين بعضهما مع الآخر، بينما اكتفى بالإشارة إلى أن العلاقة بين المقطع الأول والمقطع الثاني تمثلت في كون الأول جاء بمثابة التمهيد للثاني، ذلك الذي احتل موضع جواب القسم الذي تصدر السورة[١١].

ولا يخفى أن الإشارة إلى العلاقة بين المقطعين هنا هي علاقة نحوية بين القسم وجوابه، وذلك يمثل عودة الى ذلك المنهج القديم في التفسير الذي لا يخرج عن إطار تناول الآيات المفردة في القرآن الكريم من الناحية اللغوية والنحوية وغيرها، من دون تطبيق تلك الرؤية العضوية والعلاقات التركيبية التي تربط الأجزاء بما لها من محاور فكرية مختلفة بعضها ببعض لتكوين البناء العام والهيكل الخاص للسورة المعنية، وإلا ما الذي يربط ذكر الخيل في المعركة أو الإبل في الحج بكفران النعم وحب المال؟.

فإن قلنا إن المقطع الأول جاء بمثابة التمهيد للثاني كما ذهب الى ذلك البستاني، فإننا لا نجد توفر تلك الأنماط من العلاقات التي أشار اليها واعتمدها في منهجه من كونها هي التي تربط التمهيد ببقية الأجزاء، فليست المقدمة هنا لها موضوع مجمل ذكرت تفاصيله في بقية الأجزاء، وكذلك ليس هناك ثمة تكرار للمقدمة في مواضع متقاربة أو متباعدة داخل السورة بشكل يساعد على ربط الأجزاء مع بعضها، وأخيراً ليس هناك انعكاس للمقدمة على النص بأكمله[١٢]، اللهم إلا أن نكتفي بالقول وإن العلاقة بينهما هنا، لا تخرج عن علاقات التجانس والنمو والتداعي، وهي علاقات تحتاج إلى مزيد من التوضيح والثبات لذلك التجانس أو لذلك النمو والتداعي بين الأجزاء.

ولعل السبب من وراء ذلك هو عدم ترجيحه للروايات المفسرة للعاديات بالخيل، عن تلك الروايات التي فسرتها بالجمال عند الحج، فظاهر القول ان جميع الروايات قوية السند مقبولة عنده، فالأولى تستند الى أساس المعنى اللغوي وحقيقة ما يجري في الواقع من أن العاديات هي الخيل التي تضبح أثناء العدو، وأن الشرر والقدح لا يخرج إلا عند اصطدام حذوات الخيل بالحجارة والأرض الخصبة، بخلاف ارتطام أرجل الجمال عليها، إذ لا حذوات من حديد للجمال أو النوق.

والثانية هي تلك الروايات المفسِرة للعاديات بالجمال أو النوق، وهي روايات لم يستطع البستاني تجاوزها، وإن كانت بعيدة عن المعنى اللغوي. وكأنه هنا غادر منهجه البنائي في التفسير، وتمسك بالتفسير بالمأثور، من غير تحليل ومقارنة وترجيح لما اختلف فيه من الروايات.

فقد ذكر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) في تفسيره اختلاف أهل التأويل في تأويل قوله

تعالى ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً(١)﴾ وقدم رأي من ذهب إلى أنها الخيل التي تعدو وهي تحمحم في القتال، وكيف يرى الناس الفرس إذا جرى كيف يضبح، وأن ليس شيء من الدواب يضبح غير الكلب والفرس، فالخيل إذا عدت ضبحت، وقد فصّل القول في ذلك من طرق كثيرة وأسانيد مختلفة(١٣).

ثم ذكر ما ذهب إليه آخرون بأن العاديات هي الابل، وذكر روايات عدة تناولت ذلك، فقد ذكر ما جاء عن ابن عباس، قوله: بينا أنا في الحجر جالساً جاءني رجل فسألني عن ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ فقلت له: الخيل حين تغير في سبيل الله، ثم تأوي إلى الليل، فيضعون طعامهم ويورون نارهم، فانفتل عني فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو عند سقاية زمزم، فسأله عن ذلك، فقال له علي: هل سألت عن ذلك أحد غيري؟ فقال: نعم، سألت ابن عباس فقال: الخيل حين تغير في سبيل الله، فقال اذهب وادعه لي، فلما وقفت على رأسه قال: تفتي الناس بما لا علم لك، والله لئن كان أول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلاّ فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد، فكيف تكون العاديات ضبحا. إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى قال ابن عباس فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي رضي الله عنه(١٤) ثم ذكر الطبري روايات أخرى تفيد بأن المقصود من ذلك هو الابل في الحج(١٥).

ثم ذكر الطبري بأن أولى القولين عنده هو (قول من ذهب إلى أن العاديات هي الخيل وذلك لأن الابل لا تضبح، وإنما تضبح الخيل وقد اخبر الله تعالى أنها تعدو ضبحاً، وذكر أقوال أهل اللغة من أن الضبح من الخيل: الحمحمة ومن الابل: النفس، وذكر قول ابن عباس يصف الضبح: أح أح(١٦).

وأما تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً(٢)﴾ فقد ذكر اختلاف أهل التأويل من معناها أيضاً، فقد ذكر آراء من ذهب إلى أنها الخيل: توري النار بحوافرها، فهي تقدح بحوافرها حتى يخرج منها النار، وكذلك ذكر قول بعضهم من أن المقصود من ذلك هو الخيل يهجن الحرب بين اصحابهن وركبائهن، فالخيل يهجن الحرب بينهم وبين عدوهم، وذكر قول آخرين أن الموريات قدحا: تتمثل في حالة الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب.

وبعدها تناول آراء أخرى في تفسير هذه الآية، وذكر ذهاب بعضهم من أن المقصود منها هو: مكر الرجال، أو الالسنة، وكذلك ذكر رأي اخرين من كون المقصود منها هي الابل حين تسير تنسف بسنابها الحصى فيضرب الحصى بعضه بعضاً فيخرج منه النار.

وبعد ذكر الطبري لجميع هذه الآراء ذكر أن الصواب عنده أن يقال أن الله تعالى اقسم بالموريات التي توري النيران قدحاً، سواء أكانت هي الخيل أم الناس يورونها بالزند واللسان أم الرجال بالمكر، فلا دلالة على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فكل ما أورت النار قدحاً فداخله فما اقسم به الله تعالى في هذه الآية المباركة لعموم الظاهر(١٧).

ولذلك نجد بأن عدم ترجيحه لرأي دون آخر في هذه الآية نابع من أنه قد عزلها عن الآية التي قبلها، وهي التي رجّح فيها كون المقصود بالعاديات هي الخيل.

وأما تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً(٣)﴾ فقد ذكر آراء من ذهب إلى أنها الخيل تغير في سبيل الله في الصباح، وكذلك ذكر بأنها الابل حين ترفع بركبانها من يوم النحر إلى منى.

ولم يرجّح أحد الآراء من غيرها، وذهب إلى أن الصواب الاكتفاء بالقول أن الله تعالى أقسم بالمغيرات صبحاً، ولم يخصص من ذلك مغيرة دون مغيرة فجميعها داخلة فيما اقسم به(١٨)، وهذا أيضاً يرجع إلى أنه اعتمد تفسير الآية بمعزل عن الآيات الأخرى التي تسبقها أو تلحقها في السياق.

وأما قوله تعالى ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً(٤)﴾ فقد اتفق على رأي من ذهب إلى أن النقع يقصد به الغبار، أو التراب، وتردد في المقصود من ذلك النقع في كونه حدث عند الحرب وأن من فعل ذلك الخيل، أو أنه من فعل الابل أثناء الحج من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى، وبحسب الروايات التي رجع أصحابها أحد القولين(١٩).

وهكذا القول في تأويل قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً(٥)﴾ فقد ذكر الآراء ولم يرجح أحد الآراء على غيرها، فمن ذهب إلى أن المقصود من ذلك هو جمع القوم أو العدو، أو الكتيبة أو جمع الحجيج في مزدلفة.

وأما الشيخ الطبرسي (٥٤٨هـ) فقد ذكر في تفسيره أن سبب نزول سورة العاديات أن الرسول الأكرم ﷺ بعث سرية إلى حي من المشركين فتأخر رجوعهم فقال المنافقون أنهم قتلوا جميعاً، فأخبر الله تعالى نبيه الكريم بنصرهم ونزلت سورة (العاديات)[٢٠]، وكذلك ذكر أنها نزلت في علي عليه السلام عندما بعثه إلى ذات السلاسل وبشر الله نبيه الكريم بنصر المسلمين على أعدائهم، فصلى بهم الغداة وقرأ فيها (والعاديات) فلما فرغ قال الصحابة هذه سورة لم نسمعها، فقال الرسول الأكرم ﷺ نعم إن علياً ظفر بأعداء الله[٢١].

وأما رأيه في تفسير مفردات السورة المباركة فقد قدم الطبرسي الرأي الذي يقول أن ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ هي الخيل في الغزو تعدو في سبيل الله، وهي تضبح ضبحاً، وضبحها: صوت أجوافها إذا عدت، ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس، ثم ذكر أنها الابل حين ذهبت إلى غزوة بدر فهي تضبح أي تضبع، وكذلك ذكر القول المنسوب إلى الإمام علي عليه السلام من أنها ابل الحج تعدو من عرفة إلى المزدلفة، ثم ذكر قول ابن عباس أنها الخيل مستدلاً بالآية التي بعدها عندما قال: ألا تراه يقول ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ فهل تثيره إلاّ بحوافرها، وهل تضبح الابل؟ إنما تضبح الخيل[٢٢]، ثم ذكر الطبرسي رواية الرجل الذي سال ابن عباس عن معنى العاديات وهو في الحجر، وقال له أنها الخيل ومن ثم ذهب إلى الإمام علي عليه السلام وهو في سقاية زمزم، وكيف ذكر له أنها الابل في الحج وهي الرواية نفسها التي مر ذكرها عن الطبري في تفسيره.

وأما قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ فقال: هي الخيل توري النار بحوافرها إذا صارت في الحجارة، وقيل أن المقصود هو مكر الرجال في الحروب، وقيل هي النيران بجمع. وقيل هي السنة الرجال تورين النار من عظيم ما تتكلم به.

وأما ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾ فقد ذكر الطبرسي أنها الخيل تغير على العدو وقت الصباح، وهذا رأي الاكثرين حسب قوله، ثم ذكر أنه قد قيل أنها الابل ترتفع يوم النحر من جمع إلى منى في الصباح، وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾ قال أي: هيجن بمكان عدوهن غباراً، وقوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ أي صرن وسط جمع العدو وقيل جمع منى[٢٣].

وقد قدم الفخر الرازي (٦٠٦هـ) القول في تفسير سورة ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾ بأن الضبح

أصوات انفاس الخيل إذا عدت، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة، ولكنه صوت نفس.

ومن ثم ذكر أن المفسرين والرواة اختلفوا من المراد من العاديات على قولين: رأي ذهب إلى أنها الابل ورأي آخر ذهب إلى أنها الخيل. وفصّل القول في ذلك، وذكر الآراء وما استند عليه كل فريق، معقباً بعد ذلك بقوله: واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل، وذلك لأن الضبح لا يكون إلاّ للفرس واستعماله في الابل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز(٢٤). وهو رأي واضح للفخر الرازي في ترجيح القول الأول من أحد القولين المختلف فيهما عند المفسرين.

وإلى مثل ذلك ذهب السيد قطب من المتأخرين، فقد ذكر في تفسير سورة العاديات أن في مقدمة السورة لمسات سريعة عنيفة تنتقل من احداها إلى الأخرى (قفزاً وركضاً ووثباً) حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيستقر، فقد بدأت السورة بمشهد الخيل العادية الضابحة مثيرة للغبار داخلة في وسط العدو فجأة، فتأخذه على حين غرة، مثيرة فيه الرعب والفرار، يليه مشهد للنفس الكنود الجحود، ثم يعقبه، مشهد بعثرة القبور والصدور وتحصيل ما في الصدور(٢٥).

وقد ذهب البقاعي (ت٨٨٥هـ) في تفسيره (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) فقد ذكر في مقدمة تفسير هذه السورة أنه لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل بقوله ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: ٨)، افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الاعمال من الطبع موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز من تلك الأعمال(٢٦).

ثم أخذ يفسر آيات السورة المباركة، فذهب إلى أن العاديات هي الخيل التي ظهورها تمرد بطونها كنز و﴿ضَبْحاً﴾ هو صوت جهير من أفواهها عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا حمحمة ولا رغاء وهو النفس، ولا شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب، وذكر أن أصله للثعلب واستعير للخيل(٢٧).

ثم انتقل إلى تفسير الآية الثانية وذهب إلى أن الله تعالى لما ذكر الخيل وعدوها، اتبعه ما ينشأ عنه، ومما يتسبب عنه وهو الايراء ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ أيّ المخرجات للنار بما يصطك من نعلها

بالأحجار، فالايراء أثر القدح كضرب الزفير ليوري النار. ثم بعد أن ذكر العدو وما ينتج عنه انتقل إلى نتيجته وغايته فقال ﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ أيّ التي تغير على العدو راكضة ريعة لغرض القتل والنهب، ثم يستمر بتفسير باقي آيات السورة ليصل إلى نهاية الجزء الأول فيها وهي قوله ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ ذكر أن الاغارة في الغالب لأجل قهر المغار عليهم على أموالهم عدواناً إن كان ذلك في غير الجهاد، وإن كان في الجهاد فقل من يخلص في ذلك الحال[٢٨] أيّ أنه قطع بأن السورة تناول صورة الخيل أثناء الاغارة على العدو ولا ذكر لصورة الابل في الحج عنده.

فالجو الصاخب الذي تنشئه القبور المبعثرة، يتناسب مع الجو الصاخب الذي تثيره الخيل العادية، وهي تجري قادحة بحوافرها المغيرة فجأة في الصباح[٢٩].

وهكذا هو الأمر عند السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسير سورة العاديات، فقد ذكر في تفسير سورة العاديات أن العاديات من العدو وهو الجري بسرعة، وأما الضبح فهو انفاس الخيل عند عدوها، وهو المعهود المعروف من حال الخيل، وأن ادعي بأن ذلك يعرض لكثير من الحيوان غيرها فقد اقسم الله تبارك وتعالى في بداية هذه السورة بالخيل اللاتي يعدون ويضبحن ضبحاً.

ثم ذكر بأن هناك من ذهب إلى أنها ابل الحاج أو ابل الغزاة إلاّ أنه ذكر بأن ما في الآيات التالية من الصفات لا يلائم كونها الابل، كما في قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ فقد ذكر بأن الإيراء هو إخراج النار، والقدح الضرب والصك، يقال: قدح فأورى إذا اخرج النار بالقدح، والمراد بها الخيل تخرج النار بحوافرها إذا عدت على الحجارة والأرض المحصبة.

ثم ذكر رأي من قال بأن المقصود بالإيراء هو مكر الرجال في الحرب، أو المراد هو ايقادهم النار، أو أن المقصود هو السنة الرجال، ثم ذكر بعد ذلك بأن: هذه الوجوه ظاهرة الضعف، مرجحاً الرأي الأول، بأن المقصود منها الخيل[٣٠].

واستناداً إلى ذلك نجد بأن المتأخرين قد حسموا الاختلاف في الآراء واتخذوا قرارهم من أن المقصود بالعاديات وما بعدها هو الخيل في الحرب.

فالصورة الأولى تمثل صورة قريبة[٣١] لمجموعة من الخيل الراكضة بسرعة باتجاه واحد، بحيث تظهر رؤوس الخيل وهي ضابحة، بذلك الزفير والحمحمة والنفس الشديد الخارج من أفواهها وأنوفها وهي معتركة اللجام مسرعة نحو الهدف المقصود. لتعقبها صورة أخرى تركز على حوافرها التي يقدح من تحتها الشرر نتيجة لاحتكاك حذواتها بالحصى الموجود على سطح الأرض، صورتان قريبتان تضخمان سرعة الخيل وقوتها وهي تعدو أثناء الإغارة على الأعداء، وبعد ذلك تبتعد الصورة قليلاً لتصور مجموعة الخيل من بعيد وهي تركض، وبشكل يظهر من خلفها الأفق، ذلك الذي نستدل منه على الوقت الذي تدور فيه هذه الأحداث، فإذا الوقت هو أول الصباح، وهو الوقت الملائم لمباغتة العدو ومفاجأته، ليعقب ذلك صورة الرابعة تصور مجموعة الخيل الراكضة وكيف تثير غباراً كثيفاً من خلفها، فهي خيل كثيرة وسريعة وقوية، لتصل بعد ذلك الى مكان العدو، وتحيط به من كل الاتجاهات، ويعلو الغبار أكثر في ساحة المعركة، وتكتمل صور المشهد الأول بالانتصار وقتل الأعداء.

فالعمق الذي نلحظه في صور المشهد الأول يحقق اتساعاً تشكيكياً في بناء الصورة الكلية. وأن الحركة التي رافقت تلك الصور مكنت المتلقي من الانتقال بسهولة ويسر بين تلك المشاهد والأجزاء، فالصور والمناظر تنمو بدقة وتتجسد أمام المتلقي بوضوح.

وهنا تسكن بعدها الصورة، وتتوقف الحركة، ويعم السكون، بعد مشهد غزو سريع في لمحة من الزمن لا يستطيع المغار عليهم فعل شيء من قوة تلك الخيل وسرعتها، فيتحول السياق من الحركة الى السكون، انتقالاً يشبه ذلك الانتقال من الحياة الى الموت. وما فيه من سكون وهدوء، يمكن الاحساس به عن طريق تداعيات الجمل الاسمية المؤكدة بالحرف المشبه بالفعل (إنَّ)، وهي تعبر عن حال ذلك الانسان الذي فاجأه الموت بعد أن تناساه بطول الأمل، وكفران النعم، وحب المال، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨)﴾.

لينتقل النص بعد هذا الى مرحلة جديدة تتجسد بمرحلة الحياة بعد الموت، فإذا الحركة تعود الى الصور من جديد، وتُبعثر القبور بسرعة، وتخرج الأجداث من

الأرض، وتُحَصِّلُ ما في الصدور من أعمال بصورة أسرع، ثم الحساب عند العليم الخبير، وينتهي كل شيء.

صور متعاقبة سريعة للقيامة والنشور والحساب، تقابل تلك الصور السريعة للغزو والمعركة والموت، لا يفصل بينهما إلا ذلك الجزء الساكن الموحي بالموت، ليكتمل بناء السورة بهذا الشكل، الذي يفاجئ المتلقي ببداية قوية سريعة صادمة يعقبها هدوء حاد وسكون كسكون الأموات، لينتقل بعدها الى حركة قوية تصور مشاهد القيامة والنشور.

وبذلك يمكن أن نقول بأن آيات السورة ومقاطعها وفق هذه الرؤية فيها كثير من الاتساق والروابط فهي ترتبط مع بعضها برباط التسلسل الزمني للأحداث، الذي يمثل هيكل السورة المتسم بالوحدة الموضوعية، تلك التي تدور حول حقيقة بأن الموت يمكن أن يدرك الإنسان فجأة وفي أي وقت، وليس فقط عندما يكبر، أو عند قيام الساعة، وهو الأمر الذي يمكن أن يعتقده البعض بعيداً فيطول عنده الأمل. فالسورة توسطت بين سورة الزلزلة وسورة القارعة وهما السورتان اللتان تمحورتا حول أهوال القيامة وقيام الساعة. وتذكير الإنسان بماله ومصيره.

فالموت المفاجئ عند اغارة العدو صورة واقعية لطبيعة ما كان يجري في ذلك الزمان، وهي كذلك صورة رمزية يفهمها القارئ المُتَدَبِّر لمختلف الصور المعاصرة للموت المفاجئ في عالمنا اليوم، او التي يمكن أن تحدث في المستقبل الى ان يشاء الله حتى قيام الساعة. لذلك على الإنسان أن يتعظ، ولا يلهيه الأمل وحب الحياة، ويعي هذه الحقيقة، التي تمثل من وجهة أخرى وظيفة السورة التي تسعى إلى تحقيقها والله أعلم.

الخاتمة:

وهنا لا نريد أن نقول إنّ ما جاء به بعض المتقدمين بعيد عن رؤية المتأخرين، بل ان ما أشاروا إليه عن لا يخرج اختلاف في المنهج المتبع في التفسير أو عن اختلاف في القراءة في مواقع يسمح النص بها، كنوع من اتساع تفاعله مع الأذهان، وخلوده مع الزمن، فالمهم هو ان لا تختلف الرؤى في تحقيق الوظيفة الحقيقية الكامنة من وراء النص، وان هذه الرؤية لا تنطلق من كون المتلقي (مبدعاً) للنص بدوره كما يزعم التفكيكيون بل تنطلق من حيث

تطبيق عدة مناهج في تفسير النص واستعمال جميع الإمكانات اللغوية والدلالية للآيات والسور، والوقوف على العلاقات والأسرار التي رتبت من أجلها تلك الآيات بهذا الشكل داخل السورة منطلقين من كون هذا الترتيب جاء ترتيباً توقيفياً من قبل الله تعالى.

فعند تطبيق هذا المنهج وجدنا أن كثير من المفسرين قد وجدوا أن محور سورة العاديات يدور حول تنبيه ذلك الإنسان الغافل الكنود بأن الموت قد يأتي للإنسان دون سابق إنذار ولا يمهله للتوبة وتصحيح الأخطاء وسوف يندم حين لا ينقطع الندم. لذلك عليه الاستعداد دائماً والتمسك بالعمل الصالح ودوام تذكرة الآخرة ونبذ زينة الحياة الدنيا.

وقد وردت هذه المدفوعات في السورة عن طريق صور تلائم طبيعة الحياة في زمن النزول. ولكن هذا لا يمنع منه تخيل صور آخرين تؤدي الغرض نفسه في العصر الحديث، فإذا كان الموت المفاجئ يأتي عن طريق الغزو صباحاً على ظهور الخيل في العصر القديم، فإنه يمكن أن يأتي في العصر الحديث فالقرآن الكريم نص خالد ما بقي الدهر وإلى ما شاء الله تعالى للإنسان أن يحيى على هذه الأرض، وهو ليس مختص بغتة دون أخرى أو قوم دون آخرين، بل هو مرسل إلى الناس جميعاً وإلى قيام يوم الدين.

هوامش البحث

(١) ظ: المنهج البنائي في تفسير القرآن الكريم، د. محمود البستاني: ١٣.

(٢)الاتقان في علوم القرآن، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت٩١١هـ)، ط٢، مطبعة ستارة، منشورات ذوي القربى، إيران – قم، ١٤٢٩هـ: ج١/ ص١٢٢.

(٣) ظ: المنهج البنائي في تفسير القرآن الكريم، د. محمود البستاني: ٢٠

(٤) البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧ – ١٤٢٨هـ: ج١/ ص٤٨.

(٥) ظ: المنهج البنائي في التفسير، محمود البستاني، ط١ ، دار الهادي، بيروت – لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م: ص٥ – ٦.

(٦) التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، ١٤٠٤هـ: ٣٨٦/٥.

(٧) ظ: المصدر نفسه: ٣٨٦/٥.

(٨) ظ: المصدر نفسه: ٣٨٧/٥.

(٩) ظ: المصدر نفسه: ٣٨٧/٥.

(١٠) ظ: المصدر نفسه: ٣٨٧/٥.

(١١) ظ المصدر نفسه: ٣٨٧/٥.

(١٢) ظ: المنهج البنائي في تفسير القرآن: ٢٠.

(١٣) ظ: جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، المطبعة اليمنية في مصر، ١٣٠٦هـ: ج٣٠/ص١٥٠.

(١٤) ظ: المصدر نفسه: ١٥٠/٣٠.

(١٥) ظ: المصدر نفسه: ١٥١/٣٠.

(١٦) ظ: المصدر نفسه: ١٥١/٣٠.

(١٧) ظ: المصدر نفسه: ١٥١/٣٠ – ١٥٢.

(١٨) ظ: المصدر نفسه: ١٥٢/٣٠.

(١٩) ظ: المصدر نفسه: ١٥٢/٣٠.

(٢٠) ظ: مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، ط٢، مؤسسة الاعلمي، بيروت – لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م: ج٤٢٢/١٠.

(٢١) ظ: المصدر نفسه: ج١٠ / ص٤٢٣.

(٢٢) ظ: المصدر نفسه: ج١٠ / ص٤٢٣.

(٢٣) ظ: المصدر نفسه: ج١٠ / ص٤٢٤.

(٢٤) ظ: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، ط١، الطبعة البهية المصرية، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م: ج٣٢/ص٦٣ وما بعدها.

(٢٥) ظ: في ظلال القرآن، سيد قطب، ط١، دار إحياء الكتب العربية عين البابي الحلبي وشركاه: ج٣٠/ ص٢٢٧.

(٢٦) ظ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي: ٢١٠/٢٢.

(٢٧) ظ: المصدر نفسه: ٢١١/٢٢.

(٢٨) ظ: المصدر نفسه: ٢١١/٢٢ – ٢١٤.

(٢٩) ظ: المصدر نفسه: ٢٢٧/٣٠.

(٣٠) ظ: الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ط٢، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م: ج٢٠ / ص٣٤٥.

(٣١) ضبح الخيل: هو صوت أنفاسها عند العدو. قال عنترة:

والخيـــــلُ تَعْلَـــــمُ حـــــين تَضْـــــ ـــــبَحُ فِي حيـــــاضِ المـــــوتِ ضَـــــبْحاً

ظ: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م: ٣٨٥/١.

و ظ: أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن احمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م: ٥٧٣/٢.

مصادر ومراجع البحث

- القرآن الكريم.
- الاتقان في علوم القرآن، الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت٩١١هـ)، ط٢، مطبعة ستارة، منشورات ذوي القربى، إيران – قم، ١٤٢٩هـ: ج١.
- أساس البلاغة، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن احمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي (ت٧٩٤هـ)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ٢٠٠٧ – ١٤٢٨هـ: ج١.
- التفسير البنائي للقرآن الكريم، د. محمود البستاني، ط١، مؤسسة الطبع التابعة للاستانة الرضوية المقدسة، ١٤٠٤هـ: ج٥.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، ط١، الطبعة البهية المصرية، ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م: ج٣٢.
- جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، المطبعة اليمنية في مصر، ١٣٠٦هـ: ج٣٠.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق احمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، ط١، دار إحياء الكتب العربية عين البابي الحلبي وشركاه: ج٣٠.

- مجمع البيان في تفسير القرآن، أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، ط٢، مؤسسة الاعلمي، بيروت - لبنان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م: ج١٠.

- المنهج البنائي في تفسير القرآن، د. محمود البستاني، ط١، دار الهادي، بيروت، لبنان، ١٤٢٢-٢٠٠١.

- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ط٢، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م..

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين بن الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ)، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة - ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.